

من ملامح الفكر النقدي
عند محمد السعيد الزاهري

أ/ عبد السلام ضيف

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحاج لخضر باتنة.

Résumé

Le présent article a pour but de mettre en exergue la pensée critique de l'écrivain journaliste algérien Mohamed Said Ezzahiri . Pour ce, nous nous sommes attaché à mettre le doigt d'une part, sur la spécificité de sa critique et, d'autre part sur ses éléments constitutifs, à savoir l'élément religieux et celui relatif au patrimoine culturel. La critique littéraire est celle des personnalités sont ici les deux types de critique qui reflètent ireflètent à merveille la spécificité de la critique du dit écrivain journaliste

المخلص:

يتناول هذا المقال صورة الطفل كما وردت في تراثنا العربي القديم شعرا ونثرا للرد على أولئك الذين يدعون أن العرب لم يعرفوا أدب الأطفال في حين أن النصوص تثبت عكس ذلك حيث انطوت على ملامح واضحة لهذا الفن حتى وإن لم يكن بالصورة التي هو عليه الآن.

و قد تضمن المقال شواهد من التراث القديم جاهلية وإسلامية في عصورها المختلفة إلى جانب رصد لأهم المؤلفات التي تناولت الطفل وأدبه في التراث العربي القديم.

يلحظ الدارس للأدب الجزائري أن فترة الاستعمار وبخاصة فترة ثورة التحرير وما سبقهما من أحداث تعد من أخصب الفترات في تاريخ الجزائر الفكري وذلك لما عرفته من ولادة رجال علم وأدب وإصلاح تبناهم هموم المواطن والوطن فكانت الكلمة الصادقة والهادفة السلاح والشعار الذي رفعوه خدمة للوطن و تأسيسا لفكر جزائري أصيل رفض القعود مع الخوالب فخاض معركة الكرامة وتتوير العقول بطريقته الخاصة .

وفي خضم الوضع الذي كانت تعيشه الجزائر إبان الاحتلال والواقع العربي في النصف الثاني من القرن العشرين برز اسم الشيخ محمد السعيد الزاهري ككاتب بارع وصحافي مقتدر شارك بقسط وافر في المعارك الأدبية والنقدية والصحافية التي عرفت الساحة آنذاك . لقد آمن مثله مثل العديد من رجال الفكر الجزائري من أن دوي الكلمة ووقعها على النفوس اشد خطر على العقل من أي وقع آخر لذلك جاءت كتاباته الأدبية والنقدية لتعكس بصدق فكر جيل أبي أن ينسلخ عن أصله ولعل هذا التوجه هو الذي يفسر إلى حد بعيد رؤية الزاهري الأدبية والنقدية كما سنعمل على تبيانها .

إن النزعة النقدية عند الزاهري كغيره من أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تمثل حافزا قويا ودافعا إلى الكتابة في مجالات مختلفة وأول ما يلفت انتباه الدارس لأدب الزاهري هي غلبة النزعة النقدية إذ لا نكاد نعثر على مقالة من مقالاته إلا وكان النقد والانتقاد محورهما وطابعها المسيطر على اختلاف طبيعة ونوعية هذه المقالات سياسية كانت أم اجتماعية أم أدبية.

وعلى الرغم من هذه الروح النقدية التي يكتب بها الزاهري في المجالات المختلفة فإن لكل اتجاه مقالات نقدية مستقلة ، وباستطاعة الدارس أن يميز بين هذه الأنواع حسب طبيعة كل نوع فهي تتراوح بين مقالات النقد الأدبي ومقالات نقد الشخصيات ، ففي مجال النقد الأدبي نجد عنده بعض الآراء النقدية التي تمثل _ في الغالب _ وجهة نظره الخاصة انطلاقا من رصيده المعرفي وتوجهه الفكري الأدبي أما فيما يخص نقد الشخصيات أو كتبها فهي نزعة تعكس توجهاته الفكرية، وآراءه الإصلاحية . وليس بين هذين التوجهين كبير فرق من الجانب النقدي فكلاهما مرتبط بالآخر في عرف الزاهري النقدي كما أن هذا التوجه يقوم عنده على محور التأييد والدحض وهذا ما نلاحظه في معظم مقالاته.

مقالة النقد الأدبي:

إن الواقف على كتابات الزاهري النقدية لا يجد حدودا تدور داخلها الكلمة النقدية ، وإنما يغلب عليها النزعة التأثرية الانطباعية التي تحدد طبيعة آراءه النقدية انطلاقا من موروثة الثقافي الموجه لذوقه النقدي . إلا أن هذا لا يعدم من موضوعيته في تناوله الكثير من القضايا ، مما يعكس تأثره بمقاييس نقدية تسير على النهج العربي المتوارث . والنقد في نظر الزاهري لا يمكن أن يكون نقدا مجردا من أجل النقد ، إنما يقوم على أسس موضوعية تحدد طبيعة العمل الأدبي ، فالنقد في رأيه هو ذلك ((...الفن الجليل الذي يميز الخبيث من الطيب والخطأ من الصواب ، والصحيح من الفاسد ، إذ ليس الانتقاء هو الاقتصار على المدح والقدح متى وجد ا معا))⁽¹⁾

تلك هي نظرة الزاهري إلى النقد والتي تجلت عنده في معالجته بعض القضايا وبمقدور الدارس أن يقف على هذه الحقيقة بالرجوع إلى مقالاته النقدية ومنها هذا النموذج النقدي وهو أن أحد الشعراء التونسيين يدعى أحمد سكيرج كتب قصيدة كان قد ألقاها بمناسبة الاجتماع السنوي لجمعية أوقاف الحرمين الشريفين الذي انعقد بالجزائر العاصمة سنة 1923. ومدح فيها أحد أعضاء اللجنة المغربية السيد : خليل بوجاجب وزير القلم⁽²⁾ والاستشارة.

وبعد نشر القصيدة في جريدة الزهرة التونسية وشاع في الأوساط الأدبية من أنها قصيدة أخلت بالقوانين العروضية ، كتب أحد المتعاطفين مع الشاعر ردا عنونه بـ "دمعة على العروض" مفاده أن القصيدة ((لا ينقصها شيء من علم العروض والقافية جارية على أوزانه العربية المتعارفة ، ومن أبى فما عليه إلا أن يبسط القصيدة أو بعضا منها على محك التحليل العروضي الفني المدون ويبيدي ما رآه مخالفا واضحا ... وبذلك يكون قد خدم الأدب وأعان عليه . أما مجرد اللغط بدون حقيقة تجلى للعيان فانه الداء العضال الذي أعيانا أمره واتسع خرقة))⁽³⁾.

وتلقى مقولة الزيتوني صدها في الساحة الأدبية ليتلقى بعدها ردا عنيفا من لدن أحدهم والذي رمز لاسمه بـ (هـ) هذا الأخير الذي تعرض لما قاله الزيتوني ، فزعم من أن "دمعة على العروض" ما هي إلا رد فعل عاطفي يخلو من الموضوعية . النقدية وكتب مقالا عنونه بـ " تنفيد مزعم أو رد على زيتوني "⁽⁴⁾، تتبع فيه مجموعة الآراء النقدية التي وردت على لسان زيتوني ، بالنقد والدحض مما جعل رده هذا فيه كثير من التحامل والشطط - على حد تعبير الزاهري - الشيء الذي دفعه إلى الرد عليه بمقالة تحت عنوان " تزييف رد " .

يقول الزاهري : " أتيت من العدد الأخير من جريدة الأمة على فصل عريض فوق عنوان " تنفيذ مزعم أو رد على زيتوني " فقرأته وأنا عار عن سائر العواطف وزدت النظر فيه بسطا ، ونقدته نقدا بصيرا فتبين أن صاحبه لم يحرره إلا بحلم طائش وفؤاد روي من التسرع في الحكم " .⁽⁵⁾

ويأخذ الزاهري على (هـ) مأخذ منها ما تعلق بالجانب اللغوي والجانب العروضي الذي كان له النصيب الأكبر في رده .

فبعد أن أخذ (هـ) على زيتوني من أنه يوظف تراكيب هي إلى العامية أقرب منها إلى الفصحى

ويشهد بذلك بجملة « شوه بسمعة تونس » ، إذ أنه عدى شوه بحرف الجر وهو ما لا يقع في فصح الكلام . يذهب الزاهري إلى أن (هـ) لم يكن مصيبا فيما ذهب إليه ، ذلك أن « الجار يجز مفعول الفاعل المتقدم لغرض بلاغي ، وقد ورد كثيرا في كتاب الله وفي الحديث الشريف وفي كلام البلغاء من العرب » .⁽⁶⁾

ثم يتساءل الزاهري بعد رده هذا بنوع من السخرية والإستهزاء ، قائلا :
" ألا يسألنا صاحب ... أن نورد له من ذلك شواهد أو نراه على الأقل أمرا لا بأس به . وما كنا لنعرض لمثل هذا لو لا أن صاحبنا ينكر شيئا وقع هو فيه . " ⁽⁷⁾ ولا يقف الزاهري عند هذا الحد من السخرية بل راح يعلن صراحة أن (هـ) له من التراكيب الركيكة الباردة واللغة الفاسدة ما جعله يضرب صفحا عن كثير من القضايا ترقعا وتعاليا وأما ما تعلق بالعروض فقد ركز الزاهري على ظاهرتين ، الأولى علاقة الوزن بالسواكن الزائدة أو الناقصة في القصيدة ، والثانية البحر الذي صبت فيه إحدى قصائد أحمد سكيرج .

ومن المآخذ التي أخذها (هـ) على قصيدة أحمد سكيرج ، أنها قصيدة يغلب عليها الطابع النثري وأن صاحبها قد أكثر من الحذف والزيادة للسواكن وهذا ما أدخل بوزن القصيدة بعمامة .

ويأتي رد الزاهري على ما زعمه (هـ) بقوله : " وسواء سخط صاحب الرد أم لم يكن من الساخطين فالحق والحق أقول أن صاحبنا رمى القصيدة أول مرة بأنها ليست إلا كلاما منشورا

وبعض أبياتها - على فرض أن لها أبياتا - فيه زيادة الحرف والحرفين وفي بعضها النقص الذي لم يكن ليغفره علماء العروض ... فجعل مدعاه أن غير المتزن إنما هو المجموع وضرب لذلك مثلا باطنه فيه خلاف الواقع وظاهره من قبله السفسطة الكاذبة ، التي لا تتطوي إلا على قوم ليست لهم مسكة من فن العروض " .⁽⁸⁾

لم يقتصر رد الزاهري على الجانب العروضي ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما اتهم (هـ) بالكذب والسفسطة والجهل بعلم العروض وأبجدياته وهذه ميزة طبعته أسلوب الزاهري ونجدها ماثلة في معظم كتاباته النقدية .

واللافت للانتباه عند قراءة كتابات الزاهري النقدية هو استشاده بقول الطرف الآخر ثم الرد عليه

وهذا ما نجد ه في رده على (هـ) بقوله : " ضرب صاحب الرد مثلاً لما يقول بالرطل من الذهب أ والفضة يعطيه الرجل لصائغ يصوغه أساور أو دمالج أو غير ذلك فصاغه وقد نقص من كل سوار من تلك الأساور أو دملج من تلك الدمالج قدراً يسيراً لا يعد نقصاً من كل سوار أو دملج غير أنه إذا ضمت الأفراد بعضها إلى بعض صارت أقل من رطل فجاء الرطل غير موزون " .⁽⁹⁾

يتضح لنا من خلال فكرة (هـ) أن هذا الحكم ينطبق على الشعر بعامه ، فمتى كان البيت الواحد ناقصاً وضم إلى مجموع أبيات ناقصة ينتج عن ذلك عيب في مجموع الأبيات التي تمثل النص أو القصيدة .

وفي هذا السياق جاء رد الزاهري على دعوى (هـ) قوله : " إن هذا المدعى الذي ادعاه في مطاولة إن القصيدة العربية يوصف مجموعها بعدم الوزن إذ كان بعض أبياتها منقوصاً بعض السواكن نقصاً لا تخرج بالبيت عن دائرة الوزن وهذا لم نجد له مسوغاً فإن القصيدة إذا كانت كذلك لا يوصف مجموعها بعدم الوزن مثل ما قال صاحب الرد لا في اللسان العربي ولا في متعارف العروضيين

و لو أنه جاءنا ببينة تأخذ بيد مدعاه لسلمنا له كلما وضع الحق ولكنه أورد مزعمه عارياً عن سائر ما يشد أزره فلقى من التزييف ما لقي ... " .⁽¹⁰⁾

فالزاهري من خلال قوله يعارض مزعم (هـ) ويرى أن اختلال ونقص بيت واحد لا يخرج عن دائرة الوزن ، وهذا ما ليس له مسوغ ، وبخاصة أن (هـ) لم يأت ببينة أو مثال يكون دليلاً

وحجة دامغة لما قال . ولا يختلف الزاهري مع (هـ) في أن القصيدة كعقد الماس ، لكنه يخالفه في أن القصيدة إذا كانت تحتوي على مجموعة من الأبيات المختلفة فإن ذلك لا يعني أن الاختلال يكون في القصيدة كلها تماماً كعقد الماس فإن فساد مجموعة من حباته قادرة على أن تخلق انسجاماً والتأماماً ، عكس لو ما كان العقد يحوي فساد حبة واحدة فإن ذلك يعيب على حبات العقد كلها ، يقول : " ولسنا ننكر عليه تنظيفه القصيدة بالعقد من الماس فهي كما قال ، ولكننا ننكر عليه زعمه أن النقص يرى عيباً في المجموع كما قال ، ولكننا ننكر عليه زعمه أن النقص يرى عيباً في المجموع " .

وليس يرى كذلك عيبا في كل حبة من حباته ، إذ ربما كان بعكس ما قال فإن النقص يرى في الحبة الواحدة أقيح منه في كثير من الحبات أو في جميعها ، ذلك بأن العقد إذا كانت حباته جلها أو كلها

قصة كان أقرب إلى إلتئام أجسائه وتناسب بعضها مع بعض، وإذا كانت واحدة ناقصة بين حباته السليمة كان أبعد والواقع شاهد عدل على ما نقول " (11)

الملاحظ مما قاله الزاهري في مقالته هذه أنه يستमित في تتبع كل صغيرة وكبيرة ولا يترك شيء إلا ويأتي عليه .

فبعد أن تكلم عن العيوب العروضية والنقائص ، ينتقل بنا إلى الكلام عن البحر الذي صبت فيه إحدى قصائد سكيرج ومنها هذا البيت :

فيأخذ النغم التي توافقه ويستدل به في وزن الجلل (12).

الذي يرى (هـ) بأن صدره من بحر الرجز وعجزه من بحر البسيط ، فيخالفه الزاهري فيما ذهب إليه مؤيدا رأيه ببرهانين كما يقول : " ... وعندي أن تلك حبة واضحة على جهله بفن العروض ، يسمع بالرجز والبسيط والطويل والوافر ونحو ذلك ولا يدري لها مسميات ولدي على ما قلته برهانان : الأول لو ألم بالعروض أو ببعض العروض لعرض القصيدة السكيرجية ونقدها نقدا عروضيا على أن الزيتوني اضطره إلى ذلك والثاني قوله أن صدر البيت المتقدم من الرجز ولم يقطعه على تقاعيله ونحن نسأله أن يجري لنا هذا الصدر على أجزاء الرجز فلم نره إلا من البسيط " 2.

ونظرا إلى أن (هـ) لم يقتصر تحامله على سكيرج فقط ، بل تعداه إلى مجموع الأدباء الجزائريين من أنهم يجهلون علم العروض.

وأن ما ثبت على سكيرج من عيوب ونقائص في قصيدته ينطلي أيضا على الجزائريين ، الشيء الذي أثار حفيظة الشيخ الزاهري فعلق على ذلك برد طغت عليه نبرة العنف والزجر ، فقال : " ومن كانت منزلته من العروض ما ترى فليس بسداد أن ينتقد شيئا يجهله ، فيجعل بنا أن ننشد :

يالرجال من ذوي الأبواب من نفر لا يبرح السفه المردي لهم دنيا .

وذكرت أنه استعمل أكياسا جمعا لكأس وذلك فاسد وغير معروف ثبوته عن العرب فليأتنا على صحة هذا الجمع بسلطان مبين ونحن له من الشاكرين ، فهلا اشتغل بتتقيف أوده هو وتثقيف بني بلاده فإنه في قصيدة شاعر تونس التي يقول في مطلعها :

ترعزع ما بالعرب والشرق ساطع وما لبلاد المغرب لا تترعزع .

من القافية المتلاعنة ومن برودة المعنى وتنافرها ما يقتل الروح ويميت الوجدان فأولى له قصره عنا مواطن الخلل من أشباه هذه القصيدة التي يقيم لها التونسيون وزنا....⁽¹³⁾.

والواضح أن خروج (هـ) عن تقاليد النقد الموضوعية قد حدا بالشيخ الزاهري إلى أن يدعو إلى العودة إلى جادة الصواب وألا يعود إلى مثل هذا الشطط والتحامل والضلال . يقول : " وبعد فنتألم صاحب الرد أن لا تخرج بنا فيما يكتبه بعد أن كان عما يكون فيه مثملا خرج فيما رد به على الكاتب الزيتوني إلى وصف الشعر بأنه كذا وكذا ... وجعل يذكر أشياء لا مساس لها بما نحت فيه بل فنزلها من الموضوع كمنزلة الضب من النون وترك محل البحث وراءه ظهريا ...⁽¹⁴⁾.

مما تقدم يتضح لنا أن الزاهري في مناقشته لهذه القضية النقدية قد خرج عن إطار النقد الأدبي ليقع في إطار المعارك الأدبية ، والتي هي إلى المقالات النزالية أقرب منها إلى المقال النقدي المتخصص.

مقالة نقد الشخصيات

رأينا عند تعرضنا لقضية النقد الأدبي عند الزاهري أن الرجل كان متأثرا _ إلى حد كبير _ بالتراث بعامة والقرآن الكريم بخاصة ، كمادة شكلت ملكته النقدية ، ينطلق من خلالها في تقييم الأعمال الأدبية والفكرية المختلفة ، ففي حوار مع صحفي إسباني كان قد سألته عن أهم عناصر تكوينه الأدبي جاءت إجابته :

" إن القرآن هو الذي كون لي فكرة مستقلة ، وهو الذي ربى في ملكة التمييز التي أميز بها الخبيث من الطيب والقبيح من الحسن والباطل من الصحيح ، وأشهد أنني كنت أقرأ كتابا من كتب الأدب فيجذبني إليه وأقرأ كتابا آخر ضد الأول في الفكرة والأسلوب فيجذبني إليه أيضا ... حتى رجعت إلى القرآن فثبت عقلي بعدما كان يرجف واستقل استقلال تاما واتخذ سبيله في الأدب وغير الأدب واضحا مستقيما "⁽¹⁵⁾.

من خلال هذا النص نرى أن الزاهري يعترف بأهمية القرآن في تكوينه الأدبي والفكري ، وأن له فضلا كبيرا في بلورة اتجاهه النقدي الواضح . ومن هنا يكون طبيعيا أن يفرز أدب الزاهري المقالة النقدية التي تتناول بعض الشخصيات بالقبح والنفي كما يتناول البعض الآخر بالمدح

والنقريظ فهو حينما يسدد سهامه النقدية إلى الفريق الأول ينطلق من قناعاته بفكرته والدفاع عنها

وعن مبدئه الذي يدافع عنه ويجاهد في سبيله ، ولم يكن الزاهري ليتعرض لبعض الأفكار المنحرفة - في نظره - بدافع المعارضة فقط ، وإنما يرى أنه من واجبه بوصفه

كاتباً ينتمي إلى الحركة الإصلاحية أن يقف في وجه هذه الدعاوي التي تسيء إلى الإسلام فيعمل على محاربتها وتعرية أصحابها وكشفهم على حقيقتهم وحيثما يقف القارئ على مقالاته النقدية يجد صدى الصراع القائم بين المحافظين ولمجددين الذي عرفته الثقافة العربية في العصر الحديث ، فقد كانت هذه (المساجلات صورة عجيبة لعصر زاهر بالاتجاهات والدعوات والأهواء⁽¹⁶⁾ .

وقد أخذ المقال النقدي في خضم هذه الصراعات حريته الكاملة لما أملت طبيعة الاختلافات في المنطلق والتوجه ، والزاهري لم يكن منهجه النقدي يكرس فكره الشخصي أو هواه الذاتي ، وإنما يحاول أن ينتصر للفكر الجماعي والرؤية المشتركة للمجتمع الصالح .

ولقد أثارت أفكار هؤلاء المجددين حفيظة الزاهري ، فانبرى لهم بقلمه يفند ما يراه طعناً في الإسلام والثقافة العربية ، ويناقش بعض القضايا التي وردت في كتاباتهم مناقشة الرجل الغيور على دينه وانتمائه الحضاري ، فهم ينكرون كل شيء مرتبط بالثقافة العربية الإسلامية ذلك أنهم تكونوا تكويناً غربياً وتتقفوا ثقافة غريبة : " ولكن ناساً آخرين من أدبائنا قد تأدبوا بأدب غير عربي وتتقفوا بثقافة لا إسلامية ولا شرقية ، فأحدثوا جلبة في الصحف والمجالات وثاروا على كل شيء شرقي قديم أدبا كان أو غير أدب وسموا أنفسهم " مجددين " أو أنصار الجديد ، وهؤلاء قد يمنعهم تعصبهم أو جهلهم عن النظر في القرآن ولا يعرفون ما فيه من الإعجاز ، هم ينكرون على الشرق كل ما فيه من شيء قديم والقرآن " القديم " هو المقصود بالذات من هذا الإنكار وقد أمعنوا في هذا الإنكار وفي هذا الجحود حتى إنهم ليكادون ينكرون على الشرق أنه هو مطلع الشمس المشرقة المنيرة⁽¹⁷⁾ .

كما أنهم لم يكتفوا بهذا الإنكار بكل ما هو متعلق بالثقافة العربية الأصيلة والتراث العربي الإسلامي القديم وإنما دعوا إلى إحياء الآداب الميته وابتداع آداب محلية وتبني العامية لضرب الفصحى لإحداث قطيعة بين الماضي المجيد والحاضر المتحضر .

يقول الزاهري : " ينادي بعضهم جمهرة بوجوب إحياء الأدب الفرعوني القديم والأدب الإغريقي القديم واتخاذ أدب محلي في مصر ليستغنوا بذلك عن الأدب العربي وفي الحق أن هذا ليس خدمة لمصر وإنما هو إسقاط لزعامة مصر على العرب كلها وعلى شعوب الإسلام قاطبة ، فإن المسلمين وسائر العرب يرون في مصر إماماً لهم في الأدب العربي وفي الثقافة الإسلامية لا في أدب الفراعنة ولا في أدب الإغريق ولا في أدب محلي في مصر⁽¹⁸⁾ .

ومن هؤلاء الكتاب الذين اشتهرت أسماؤهم (طه حسين) ففي مقال للزاهري بعنوان " الدكتور طه حسين شعوبي مآكر " تناول فيه بالنقد ما كتبه طه حسين في جريدة النداء البيروتية من قضايا أثارت محمد السعيد الزاهري ودفعته إلى الرد على ما ورد فيها ، بقوله : " قرانا في جريدة النداء البيروتية الغراء أن أستاذ الدكتور طه حسين كتب في جريدة " كوكب الشرق " المصرية فصلا جاء فيه (لقد خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس واليونان ، وجاءتهم من العرب (كذا) والفرنسيين وجاءتهم من الإنجليز أخيرا ، فحشر الدكتور طه العرب في جملة الظالمين الذين ظلموا مصر وحكموها بالبغي والعدوان " (19).

وقد أثار كلام طه حسين الوارد في جريدة (كوكب الشرق) كثيرا من الكتاب اللذين رأوا تجريحا وحطا من قيمة العرب ، فثارت مساجلات على صفحات الجرائد بين مؤيد ومعارض فكانت جريدة السياسة في مصر تحمل لواء الدفاع عن طه حسين. في حين حملت جريدة " كوكب الشرق " لواء الحملة عليه 1 ، وقد وصل صدق هذه المساجلات إلى بلاد المغرب العربي فهاجم بعض حملة الأقلام هذا الاتجاه الحديث في الفكر " وكان من أجراً هؤلاء وأكثرهم صراحة محمد السعيد الزاهري الذي هاجم طه حسين هجوما عنيفا واتهمه بالشذوذ

والنزق والشعبوية واستخدام الموضوعات والأساليب التي يريدها الاستعمار " (20).

إن حكم الزاهري على طه حسين لم يأت من فراغ وإنما من نتيجة لاطلاعه على بعض مؤلفاته منها كتابه " في الشعر الجاهلي " و " قادة الفكر " و " المجلد في تاريخ الأدب العربي " و " في الصيف " .

فأما كتاب " في الشعر الجاهلي " فقد أثار زوبعة في المشرق وتصدى له كثير من الكتاب بالنقد ، لأن ما جاء فيه طعن في الإسلام وخروج عن جادة الصواب ، وقد تركزت انتقاداتهم على نقاط أثارها الدكتور طه حسين في كتابه هذا ، ومنها :

* أنه كذب القرآن في أخباره عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

* أنه طعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .

* أنه أنكر القراءات السبع المجمع عليها ، فزعم أنها ليست منزلة من الله .

* أنه أنكر للإسلام أولو يته في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم عليه السلام . (21)

كانت هذه النقاط التي وردت في كتاب (الشعر الجاهلي) تحديا واحتقارا للتراث الأدبي والإسلامي في نظر الكثير من الكتاب فهاجموه هجوما عنيفا ، واتخذ أسلوب الهجوم طريقتين : طريق المقال الصحفي ، ثم طريق الكتاب ، ففي مجال الكتب خرجت عشرات كلها في نقد كتاب " في الشعر الجاهلي " والرد عليه ودحض آرائه ، ومن

أبرزها كتاب " تحت راية القرآن " للمرحوم مصطفى صادق الرافعي. و" الشهاب الراسد على الشعر الجاهلي " للأستاذ محمد لطفي جمعة ، و"نقد كتاب الشعر الجاهلي " للأستاذ محمد فريد وجدي و" نقض كتاب الشعر الجاهلي " للشيخ الخضر حسين، و" النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي " للأستاذ أحمد الغمراوي وغيرها من الكتب .

وبما أن الزاهري ينتمي إلى مدرسة المحافظين فانه وجد في ردود هذه المجموعة من الأساتذة وبخاصة الرافعي ردودا موضوعية تتم عن غيرة هؤلاء عن التراث والأصالة العربية الإسلامية يقول الزاهري : " فأما في الشعر الجاهلي - فهو طعنة نجلاء في صميم العروبة ، لما هو تكذيب لآيات الله لأنه طعن فيه على القرآن ونسب فيه إلى الرسول (ص) التحيل ونحو ذلك"(22).

حكم الزاهري النقدي هذا ينطلق من قراءة متأنية لكتاب " في الشعر الجاهلي " فهو نقد للكتاب من خلال بعض فقراته ، ومن ذلك قول طه حسين : " فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف 2.. ويبقى موقف الزاهري من الدكتور طه حسين ثابتا ليس فقط من خلال كتابه " في الشعر الجاهلي" بل تعداه إلى كتب أخرى من مثل " قادة الفكر " الذي قال فيه : " ورسالة (قادة الفكر) إذا أنت قرأتها علمت كيف يتجاهل طه حسين العرب ويحذفهم جملة واحدة من قائمة المفكرين ، ويهملهم إهمالا تاما كأن لم يكونوا (قادة الفكر) في الدنيا قرونا طوالا .

الملاحظ من خلال هذه الفقرة أن موقف الزاهري موقف عام يقوم على معيار واحد هو الانتماء وحقه على الكاتب ، إذ ما الداعي إلى تجاهل العرب وما قدموه والاهتمام بالأمم الأخرى ، وكأن العرب لم تكن لهم إسهامات في بناء الفكر البشري حتى يصبحوا قادة له .

ويتضح موقف الزاهري من شخص طه حسين أكثر عندما ينتقل إلى الجانب الفكري، مبرزاً بذلك موقفه من الأدب العربي القديم من خلال تقييمه للكتاب " المجمل في تاريخ الأدب العربي "يقول : " وليس لهذا الكتاب إلا نتيجة واحدة يحصل عليها الطالب عندما يفرغ من قراءته وهي : أنه لا قيمة لهذا الأدب العربي وليس هو شيئا مذكورا(23) إن حكما نقديا كهذا لا يمكن أن يكون إلا عصاراة تتبع دقيق ، وتحليل مسهب لمحتوى هذا الكتاب لأنه جاء نتيجة توصل إليها الزاهري وأثبتها بهدوء.

ولم يستهدف طه حسين - من خلال هذا الكتاب - طبيعة الأدب العربي بعامة بوصفه تراثا يمثل عمقا حضاريا ومرجعا تاريخيا ، وإنما شكك حتى في نزاهة الأدباء العرب وهم الرواة لهذا الأدب يقول الزاهري :

" لا ثقة بالأدباء العرب في كل ما لهم من الروايات والأسانيد ، ومعلوم أن كتابا كهذا أقل ما فيه أنه يفقد الطالب أهم ركن من أركان الأدب الرفيع وهو الذوق الصحيح" إن موقف طه حسين من الأدب العربي ورواته جعل الزاهري يقرر حكما عاما على الكتاب وجعله سببا مباشرا في انتقاد القارئ لذوقه الصحيح ، وفي هذا حكم مستتر مفاده أن نقد طه حسين بني على مبادئ وخلفيات لا أساس لها من الصحة وهو بهذا وصل إلى نتيجة خاطئة فاسدة.

ولعل الزاهري قد استمد موقفه النقدي هذا من خلال بعض الفقرات التي وردت في كتاب المجمل من مثل قول طه حسين: " لا يذهب عنك أن حضارتنا الحديثة ليست قائمة في جميع نواحيها على الحضارة العربية القديمة ، حتى تجري في أدينا على سبيل العرب وننزع منازلهم في تصورنا للأشياء وحكمنا عليها ، وطريقة تصويرنا لها ."(24).

ومن الملاحظ أن محمد السعيد الزاهري قد انطلق في فهمه لما جاء في كتاب المجمل من منطلق إصلاحي مناصر للاتجاه المحافظ ، وقد أشار الناقد محمد مصايف إلى ذلك بقوله : " وتحامل الزاهري وسطحيته في هذه المناقشة لا يحتاجان إلى دليل فهو مدفوع بنزعة الإصلاحية ، وبموقفه من النهضة الأدبية عموما ، إلى أن يقف هذا الموقف ضد التجديد ، وهو موقف مناصر للاتجاه التقليدي في المشرق العربي "(25).

ويتضح موقف الزاهري النقدي من شخص طه حسين أكثر عندما ينتقل إلى الوسيلة الفنية التي يستخدمها طه حسين في أعماله الأدبية ، وإذ يعترف له بمقدرته الفنية الخارقة وامتلاكه لأسلوب جذاب مغر ، إلا أن هذا الاعتراف قد جاء في صورة إدانة ، إذ يقول : " لقد أوتى طه حسين كل وسيلة من وسائل الفتنة والإغراء ، فأسلوبه سهل جذاب ، وموضوعاته التي يكتب فيها هي الحب والهوى مما يشوق الشباب ويستهويه وهو يدخل على الشباب لا من باب العقل والإدراك ولكن من باب العواطف والشهوات .

يقودهم من أهوائهم وشهواتهم إلى حيث يريد لهم من الهلاك والردى إلى حيث يسلبهم دينهم وإيمانهم ، ويستل منهم النخوة والاعتزاز بالعروبة "(26).

إن النزعة الإصلاحية واضحة جدا من خلال هذه الفقرة، وهو الشيء المميز لمعظم مواقف الزاهري النقدية ، فلا نكاد نعر على نص نقدي إلا وعنصرا العروبة والإسلام يمثلان المحورين الأساسيين اللذين يقوم عليهما الحكم النقدي، وكدليل على ذلك قول الزاهري: " خذ مثلا لذلك الأستاذ الدكتور طه حسين وهو مشهور قد ترجم عن الفرنسية ولكنه لم يترجم إلا أفجر الروايات واشدها خلاعة واستهتارا ، وهو حينما أنكر إعجاز القرآن الكريم عرب رواية نشرها في مجلة الهلال قال في أولها أن هذه الرواية هي أروع آية من آيات الأدب الحي وإنها قد بلغت أعلى درجة من درجات الإعجاز

وقرأت أنا هذه الرواية فإذا هي تافهة موضوعها أن راقصة إيطالية قد أحبها شيخ كبير من الأمريكيان ووصلته ذات يوم فكان بينهما من الخطيئة والإثم ما نخل منه غير أن الدكتور طه حسين وصف ذلك كله وصفا يشوق القارئ ويغريه⁽²⁷⁾.

مما سبق نستنتج أن للشيخ الزاهري أداة خاصة به في تناوله لكتابات غيره ، فهو ينظر إلى كل من يتعرض للعروبة والإسلام بمنظار خاص حتى وإن كان يمتلك خاصية الفن الراقي والأدب الرفيع فهو في نظره حامل للواء الفتنة ، ومثير لمكامن الفساد ومشيع للفرقة بين صفوف المسلمين وفي هذا السياق نجد الشيخ قد انبرى كعادته لأحد هذه الأقلام ، وهو في هذه المرة (الشيخ علي بن سعيد) صاحب جريدة (الليالي) والذي كتب مقالا عنوانه (إخواننا في الدين) وكان يظن انه يدعو إلى التآخي بين العرب والبربر في الجزائر ، وإذا بالمقال ينحو منحى آخر أثر حفيظة الشيخ الزاهري ، إذ رأى فيه دعوة إلى التفرقة والشقاق بين أبناء الدين الواحد من عرب وميزابيين.

وفي ذلك يقول : (علم الله أن هذا المقال * إخواننا في الدين * هو شرارة شر مستطير ومبدأ فتنة مذهبية طائفية عمياء يجب أن يحذرنا أهل هذا الوطن جميعا ، وأنها لمكيدة استعمارية تنصيرية سافلة وضیعة ، لا يريد بها كاتبها وجه الله ولكن ليفري بيننا العداوة والبغضاء وهي بالنسبة للشيخ علي صاحب الليالي (فتنة من ذي مروءة عشر...)⁽²⁸⁾.

يلاحظ الدارس في مقدمة هذا المقال أن الشيخ الزاهري قد التزم منهجية خاصة لإبراز موقفه من مقال جريدة " الليالي " وذلك بلفت الانتباه إلى ما جاء في المقال " إخواننا في الدين " يعد شرارة شر مستطير ، لذلك وجب على أهل هذا الوطن أن يحذروا هذه المكيدة الاستعمارية وهو بهذا لا ينتصر لفكره الشخصي أو لهوى ذاتي ، وإنما يحاول دائما أن ينتصر للفكر الجماعي وللمجتمع الصالح كما يتصوره وكما يحدده له مبدأه.

ويشير الشيخ الزاهري إلى أن المقال يحمل مغالطة بين العنوان ومضمون - وبمقدور الدارس أن يلاحظ ذلك من خلال استعراضه المختصر لما ورد في المقال ، ويقول: " العنوان شيء والمقال شيء آخر يخالفه على خط مستقيم - العنوان هو : " إخواننا في الدين " ، وهذا يقتضي أن يتناول الكاتب العلاقات بين المالكية والإباضية بالتطهير والتمتين والدعوة إلى التآخي والتغاضي على الهفوات حتى لا يبقى أي أثر لسوء التفاهم من هؤلاء الاخوة المؤمنين ولكن المقال من أوله إلى آخره هو اتهام باطل لإخواننا الميزابيين ووصف لهم بأشنع ما يوصف به أعداؤنا في الدين ! بل لم يتورع الكاتب أن وصف الميزابيين بأنهم مستعمرون مستثمرون.

وزاد فوصفهم بأنهم أشد عداوة لنا من المستعمرين الأجانب ...⁽²⁹⁾.

تتضح طريقة الشيخ الزاهري في تناوله لمختلف المقالات انه لا يتوقف عند حدود الانتقاء الموجه للشخصية ، بل يتعداه إلى مضمون ما ورد في كل مقالة متى يقدم الحجة ، ويكون بذلك قد التزم الموضوعية والعلمية في مناقشة الفكرة وتحليلها وتقديمها إلى القارئ بكل أمانة ، وهذه الطريقة تساهم إسهاما كبيرا في كسب ذهنية المتلقي، وتبث في نفسه قابلية تجعله يتابع مضامين النقد الذي سيلحقه الكاتب إلى هذا التقديم .

ومن مميزات النقد عند الزاهري انه في عدد قليل من كتاباته النقدية - يلقب صاحب المقالة بلقب يكون غالبا من باب السخرية والإستهزاء ، مستمدا من روح المقالة نفسها ، فنجد عندنا قرا مقالة " علي بن سعيد" وجد فيها نبرة الغاضب الحانق لقيه بـ " سي زعفان" (30) . وجعل من هذا اللقب فاتحة لمواصلة نقده ، فيقول : " لقد بالغ (سي زعفان) حتى جرد إخواننا في الدين من كل عاطفة إنسانية شريفة ، فزعم - وزعمه باطل - انهم لم يعينوا معوزا ولا أغاوثا يائسا ولا أعطوا سائلا وهذا غير صحيح ..."(31).

فالزاهري يتميز بالرد المباشر قبل أن يسرد ما جاء في المقالة ، حتى لا يجعل القارئ ينتظر رأيه ، ويكون موقفه _ بذلك _ موجها للقارئ فيجعله يتوقع النتيجة دون التواء ودون تعصب لرأيه ، خاصة وانه يدعمه بأدلة مفصلة كما فعل مع (سي زعفان) . عندما بدأ يذكره بمآثر الميزابين مستشهدا بالأسماء والأحداث(32).

ويفيض أسلوب الزاهري بضروب التهكم بين الشدة والخفة ، وبخاصة عندما يوجه نقده مباشرة إلى (علي بن سعيد) فيسقط عليه مجموعة من الصفات ويلزم كل صفة بما ينجر عنها كقوله : " وإن كنت تعني بغزائك المخنقة أن تختبر مكان الألم من صدورهم وصدور بقية إخوانهم المسلمين الجزائريين حتى تعلم من أين تهجم عليهم أجمعين بتفريق الجموع وتشتيت الصفوف ... وإن كنت تعني بشعوثك هذه أن تملأ جيبك الخاوي على حساب (إخوانك في الدين) فاعلم إننا أصبحنا في عصر (فاقو) ... وإن كنت تعني بأشعثك البنفسجية هذه أن تلقي ضوءا على صورة إخوانك في الدين لترتهم في الصورة التي تريد لإخوانهم المسلمين ... وإن كنت تعني بغزائك الشيطانية أن تجعل من إخوانك في الدين أمة أدل من اليهود وتفرض عليها جزية تؤديها لك ولمن شايئك عن يد ..."(32).

يلاحظ الدارس أن الزاهري لا يكتفي بتشويه اسم (الشخصية) وتلوينها بالألوان المنبوذة ، وإنما يضيف إليها خصلة أخرى ، فيجعله وسيلة طيبة في يد المستعمر " ... وتفرض عليها جزية تؤديها لك ولمن شايئك ..." وللمتمتع في مقالات الزاهري أن يلاحظ ويستنتج طريقة التصوير التي يلجأ إليها الكاتب ، في تجسيد شخصية (علي بن سعيد) حين جعله (مفرزا لغارات مخنقة ، ومشعوذا يأمل في الغنى ، ومشعا بالأشعة البنفسجية ، وصاحب (غمزات شيطانية) وهي كلها كنايات يعمد إليها الكاتب قصد الإيضاح ،

وإبراز خفايا شخصية خصمه ومظاهرها هكذا يجمع الزاهري براعته في نقد الشخصيات وهو في مرة يطعم مقالاته ببعض الألفاظ العامية الهادفة ، وأبيات الشعر المدعمة لفكرة الموضوع دون إخلال كما في خاتمة مقالته هذه ، فبعد أن وجه نصيحته للجزائريين بقوله : " وأخيرا فليحذر المسلمون الجزائريون جميعا هذه الشرور التي يبيتها الاستعمار بثا لتفريق كلمتنا بعدما ظهر من الألفة والإجماع ، أ فلم يكفنا ما جره علينا الافتراق والتقاطع من الخطوب والبلايا . . ." (33).

بعد هذه الخاتمة يخرج من مقالته ببيتين من الشعر :

فإذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان

الهوامش

1- الزاهري. النقد الأدبي . الشهاب . س1 . ع. 6 . 1925 ص 5

2- أنظر جريدة الزهرة التونسية . ع . 3773 . (1923 /06/21)

3 - نفسه (زيتوني)، دمعة على العروض، ع 3792، (15-07-1923)

4 - أنظر جريدة الأمة التونسية س 2، 42، (18-07-1923)

- 5 - الزاهري - تزييف رد، النهضة س 3 - 36 (06 - 11 - 1923)
- 6 - نفسه
- 7 - الزاهري، تزييف رد، الأمة التونسية، س 3، ع 42 (18 - 07 - 1923)
- 8 - الزاهري تزييف رد، النهضة التونسية س . 3 36 (06 - 11 - 1923)
- 9 - نفسه .
- 10 - الزاهري تزييف رد، النهضة التونسية س . 3 36 (06 - 11 - 1923)
- 11 - الزاهري تزييف رد، النهضة التونسية س . 3 36 (08 - 11 - 1923)
- 12 - الزاهري تزييف رد، النهضة التونسية س . 3 41 (11 - 11 - 1923)
- 13 - نفسه ع 49 (19 - 11 - 1923)
- 14 - نفسه
- 15 - الزاهري - الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير - ص 72 .
- 16 - أنور الجندي - المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة، ص 11 .
- 17 - الزاهري - الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير - ص 76 - 77 .
- 18 - الزاهري الاسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص 78 .
- 19 - الزاهري ، الدكتور طه حسين شعوبي ماكر، الصراط س 1 ، ع 4 (09 - 10 - 1933)
- 20 - أنظر سامح كريم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية ص 79 .
- 21 - د . محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص 24.
- 22 - الزاهري الدكتور طه حسين شعوبي ماكر، الصراط س 1 ، ع 4 (09 - 10 - 1933)
- 23 - نفسه
- 24 - طه حسين وآخرون - المجلد في تاريخ الأدب العربي - ص 180
- 25 - محمد مصايف - النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي - ص 25 .
- 26 - الزاهري ،د. طه حسين شعوبي ماكر. الصراط .س 1 ع 4 (09 - 10 - 1933)
- 27 - الزاهري ماهو العلاج . الصراط . س1 ع 1 (27 - 11 - 1933)

- 28 - الزاهري ، حول أسطورة إخواننا في الدين، الأمة س 2 ع 80 . (23-06-1936)
ص 1/2
- 29- الزاهري حول أسطورة إخواننا في الدين الأمة س 2 ع 80 (23 - 06 - 1936).
- 30 - سي زعفران : لفظة عامية معناها السيد الغضبان.
- 31 - الزاهري، حول أسطورة إخواننا في الدين، الأمة ، س 2 - ع 80 (23- 06 - 1936) ص 1 / 2.
- 32 - أنظر الزاهري، المصدر نفسه، ففيه ذكر مفصل لأسماء الشخصيات وما قامت به من أعمال هي لهم مفخرة والشرف.
- 33 - الزاهري ، حول أسطورة إخواننا في الدين الأمة، س 2 ، ع 80 ، ص 2.